مجد أبو ريا | نشر في ٢٤ يوليو ٢٠١٩,

مراسم الزفاف وأنواع النكاح عند العرب قبل الإسلام

تعددت المجتمعات العربية في مواقعها الجغرافية المختلفة، فكان للعرب وجودهم في جنوب شبه الجزيرة العربية كاليمن، ووسط شبه الجزيرة العربية وشمالها، وفي بلاد الشام والعراق، لكن أغلب المؤرخين أجمعوا أن النصوص الخاصة بقواعد الزواج عند هذه المجتمعات تكاد تكون محدودة.

في هذا التقرير، نلقي الضوء على الزواج والزفاف بشكله السائد في فترة الجاهلية، الذي ما زالت بعض طقوسه تمارس إلى اليوم، كما نتعرف على أشكال وأنواع من النكاح اختفت مع ظهور الإسلام الذي حرمها لبشاعتها، وكان كثير منها مستهجنًا من كثير من عرب الجاهلية.

مراسم الزفاف عند العرب في الجاهلية

كان الزواج التقليدي الذي نعرفه اليوم هو السائد والمعروف عند العرب قديمًا، فهو يتبع بروتوكولات وعادات متفق عليها، تندرج تحت مسمى مراسيم الخطبة والزواج عند العرب قبل الإسلام، فقد ذكر المؤلفان هايل البري والعازم صبحي محمود في كتابهما (الزواج عند العرب قبل الإسلام "والطقوس دارسة تاريخية في القواعد والمراسيم ") كل ما يتعلق بعادات وتقاليد العرب قبل الإسلام، التي أقر بعضًا منها الإسلام فيما بعد.

تعد الخطبة بطقوسها أي المرحلة التي تسبق الزواج، من أهم المراحل في الزواج التي اعتنت بها المجتمعات العربية القديمة، وتوارثتها المجتمعات الحديثة، فبعد أن يتعرف الشاب إلى الفتاة، ولكي يتأكد الرجل من الصفات التي يرغب بها في الفتاة، يرسل امرأة ثقة من أسرته إلى بيت الفتاة لتشاهدها عن قرب

وتتأكد من حركاتها وسكناتها.

ما يثير الاهتمام هي الجملة التي حفظها العرب على لسان خطيب الجاهة، التي يقولها عند الطلبة بقوله: "أنعموا صباحًا أو مساءً – بحسب الوقت الذي حضورا فيه – نحن أكفاؤكم ونظارؤكم، إن زوجتمونا فقد أصبنا رغبة وأصبتمونا، وكنا لصهركم حامدين، وإن رددتمونا لعلة نعرفها رجعنا عاذرين"

وبعد أن يقع اختيار الشاب وأهله على الفتاة، يقوم أهل الفتى بالاستقسام بالأزلام لدى أصنامهم، لمعرفة إن كان في هذا الأمر خير لهم أم لا، وبيان صلاحية الزواج بمجمله، وبعد أن يستقر الرأي يذهب ولي أمر الشاب ووجوه القبيلة، وهذا ما يُعرف اليوم بـ"الطلبة" و"الجاهة"، بعد أن يكونوا قد مهدوا لذلك، وحددوا الصداق ثم يدخلون إلى بيت أهل الفتاة الذين أظهروا استعداداتهم لاستقبالهم.

إن ما يثير الاهتمام هي الجملة التي حفظها العرب على لسان خطيب الجاهة، التي يقولها عند الطلبة بقوله: "أنعموا صباحًا أو مساءً – بحسب الوقت الذي حضورا فيه – نحن أكفاؤكم ونظارؤكم، إن زوجتمونا فقد أصبنا رغبة وأصبتمونا، وكنا لصهركم حامدين، وإن رددتمونا لعلة نعرفها رجعنا عاذرين"، ثم يجيب ولي أمر الفتاة بالقبول أو من ينيبه بالحديث من أفراد عشيرته جوابًا مناسبًا يضمنه الرضا.

ثم يُحدد قيمة الصداق "المهر" الذي على العريس دفعه إلى أبيها، في الجلسة نفسها، ويختلف مقداره باختلاف مركز الخاطب ووالده، الذي قد يبلغ مئة من الإبل أو الغنم أو أقل من ذلك، أو كمية من الذهب والفضة، وقد تشترط الفتاة مقدار مهرها بنفسها.

يتم حمل جهازها ومتاعها بعد ذلك إلى بيت زوجها من شباب القبيلة في موكب تتقدمه الموسيقى الشعبية بالأناشيد والزغاريد، وفي يوم الزفاف يتم إعداد وليمة لمن وفد إلى بيت والد العريس من أصدقائه وأقربائه

وبعد إتمام هذه المراسم، يتطيب والد الخطيبة بالعنبر والعبير، وينحر بعيرًا أو أكثر أو شاة، ومن ثم تُمد الإسمطة ويُطعم الناس، وبعد استكمال إجراءات الخطبة والعقد، تجري احتفالات خاصة في بيت الزوجين لاستكمال مراسم الزواج الذي يحدد له يوم معين من أيام الأسبوع والشهر، يسمى "البناء"، وكانوا يفضلون عندما يكون القمر بدرًا، بسبب تطيرهم من الزواج في الليالي المحاق، وجرت العادة أن يكون ليل الإثنين أو ليل الجمعة، وبعد إتمام جني المحاصيل في المجتمعات الريفية.

ومن ثم تجهز العروس من والدها بجميع متطلباتها، وذلك من المهر الذي قدمه العريس، ثم تقام الاحتفالات في بيت والد العريس الذي يمتلئ بالأغاني والأناشيد والأهازيج والزغاريد والضرب على الدفوف، أما في بيت والد العروس فيتم تجهيز الفتاة وتجميلها وتطيبها من نساء مختصات، كأن تكحل عينيها وتزجج حاجبيها وتفلج أسنانها وتمشط شعرها، وتضع "الحناء" على كفها وقدمها، وما إلى ذلك.

يتم حمل جهازها ومتاعها بعد ذلك إلى بيت زوجها من شباب القبيلة في موكب تتقدمه الموسيقى الشعبية بالأناشيد والزغاريد، وفي يوم الزفاف يتم إعداد وليمة لمن وفد إلى بيت والد العريس من أصدقائه وأقربائه، غالبًا ما تكون ذبيحة، وتسمى هذه الوليمة "الإملاك"، حسب مكانة العريس ووالده وتتناسب هذه الولائم في العادة مع مكانة العريس ووالده، فلو كان غنيًا كانت وليمته ضخمة وقد يكون فيها مطربون، وهذا يشبه ما يجري في مجتمعنا إلى حد كبير.

وكما تجري العادة اليوم، كانت توصي والدة العروس ابنتها بوصايا خاصة قبل زفتها، كحسن السمع والطاعة للزوج، والتفقد لوقت منامه وطعامه والحرص على ماله وحسن التدبير والتقدير في بيته وأولاده، وعدم إفشاء أسراره، وما إلى ذلك.

تزف العروس إلى بيت زوجها بعد أن تكون قد ارتدت أفضل الملابس المصنوعة من الحرير، وزينت وجملت وتطيبت بأفضل أنواع العطور

في العادة، كان والد العروس يودع ابنته بالعبارة الآتية: "أيسرت وأذكرت ولا أنثت، جعل االله منك عددًا وعزًا وخلدًا، أحسني خلقك، وأكرمي زوجك وليكن طيبك الماء..."، وذلك في حال تزوجت من أحد أقربائها، أما إذا تزوجت بغير القريب فيقول والدها: "لا أيسرت ولا أذكرت، فأنك تدنين البعداء، أو تلدين الأعداء، أحسني خلقك، وتحببي إلى أحمائك، فإن لهم عينًا ناظرة إليك، وأذنًا سامعة إليك، وليكن طيبك الماء...".

وتزف العروس إلى بيت زوجها بعد أن تكون قد ارتدت أفضل الملابس المصنوعة من الحرير، وزينت وجملت وتطيبت بأفضل أنواع العطور، وتحلت بالحلي من أساور في معصميها ومعاضد في عنقها وعضديها وخلاخيل في ساقيها وحلقان في أذنيها وقلادات وتاج على رأسها، ومعها صديقاتها ويقترن ذلك بضرب الدفوف والغناء ويقال لليلة التي تزف العروس فيها بليلة الزفاف، ويعرف موكب الزفاف "بالزفة"، وتزف على الإبل ويسيرون والنيران بين يدي العروس.

ويزف العريس كذلك إلى بيته بموكب وبرفقته الأصدقاء وذوي القرابة بالغناء والأهازيج، ويحيون ليلتهم بالشراب والغناء واللعب وبعد ذلك تدخل العروس إلى غرفتها الخاصة مع زوجها، وتودع من النساء، وعندها يتم الزواج، وذلك بعرض دم البكارة على الأقارب ليكون شهادة على سلامة شرفها وعفتها، ويكون ذلك بالأهازيج والغناء وارتداء الملابس النظيفة المناسبة لهذه المناسبة.

الزغاريد العربية

"الزغروطة" و"الزغروتة" في بلاد الشام أو "الهلهولة" و"اليباب" أو "الغطرفة"، كما هي معروفة في الخليج العربي، وتعرف في المغرب باسم "الزغاريت"، تعني صوت الولولة، فيصدر صوت الزغروطة بتحريك اللسان على الجانبين الأيمن والأيسر، بشكل متتابع، مع إخراج الهواء من الحلق بقوة، وقد يمكن الاستعانة باليد، ما ينتج عنه الزغرودة.

أما عن الأصل التاريخي لـ"زغرودة"، يقول بعض المؤرخين إن النساء في فترة الجاهلية كنّ يرافقن الرجال إلى ساحة المعركة بالزغاريد لإثارة الحماس فيهم، مع قرع الطبول والدفوف، وكذلك تحول الموضوع إلى حفلات الزفاف لديهم، ويقول آخرون إن النساء في عصر الجاهلية، كنّ يقمن بالزغاريد الجماعية كغناء للآلهة لطلب الغوث والعون وسقوط المطر.

باعتقاد أنه في أثناء تحريك اللسان على الجانبين تطلق سهام من الداخل لتكسر الحسد الذي تعرّض له الإنسان، وبالتالي تولد الطاقة الإيجابية بداخله

فيما يعتقد مؤرخون آخرون أن الزغاريد يعود أصلها إلى الهند القديمة تحديدًا من ولاية بنغال في شرق الهند، حيث يطلق على الزغرودة في الهند اسم "جوكار"، وتعتبر إحدى الموروثات القديمة، فيما يعتقد الهنود أن الزغرودة تعمل على طرد الطاقة السلبية من الجسم.

وذلك باعتقاد أنه في أثناء تحريك اللسان على الجانبين تطلق سهام من الداخل لتكسر الحسد الذي تعرّض له الإنسان، وبالتالي تولد الطاقة الإيجابية بداخله، كما هناك اعتقاد بأن الزغرودة يعود أصلها لقبيلة هندية تسمى "السو"، وكانت تستخدم الزغاريد في الحروب لترهيب العدو.

أنواع الأنكحة "الزواج" في الجاهلية

كل ما تم ذكره من مراسم الزواج في الجاهلية، يندرج تحت مسمى الزواج التقليدي الذي نعرفه اليوم بتفاصيله، بعد أن توارثناه جيًلا بعد جيل، لكن هناك أنواعًا أخرى للزواج كانت في العصر الجاهلي، فريدة من نوعها، جاء الإسلام وحرم الكثير منها.

تحدث المؤلف والمؤرخ السوري المعاصر عبد السلام الترمانيني، في كتابه "الزواج عند العرب: في

الجاهلية والإسلام" عن كل ما يتعلق بأنواع النكاح في الجاهلية.

الاستبضاع

وفي هذا الزواج تتزوج المرأة برجل آخر يكون شاعرًا أو فارسًا لتنال منه الولد فقط وكل هذا بموافقة زوجها، كان الرجل في الجاهلية يقول لزوجته اذهبي إلى فلان فاستبضعي منه ويكون هذا النكاح بغرض تحسين النسل وليس شهوانيًا، وقد اختفى هذا النوع بعد تحريم الإسلام له.

معنى المخادنة في اللغة هو المصاحبة، والخدن هو الصديق والصاحب، وفي الجاهلية كانت تطلق على معاشرة مجموعة من الرجال لامرأة واحدة

المضامدة

المضامدة من الضمد، وهو اللف والعصب، وكانت في الجاهلية تطلق على معاشرة المرأة لغير زوجها، وكانت تلجأ إليها نساء الجماعات الفقيرة زمن القحط، ويضطرها الجوع إلى دفع نسائها في المواسم التي تعقد فيها الأسواق لمضامدة رجل غني، تحبس المرأة نفسها عليه حتى إذا غنيت بالمال والطعام عادت إلى زوجها.

وفي هذا النوع من الزواج قد تتزوج المرأة من رجلين أو ثلاثة رجال لتأكل عند هذا وتشرب عند ذاك وتشبع في أوقات القحط، ورغم انتشار هذه العادة فإن معظم العرب لم يستحسنوها واعتبروا أن هذا الزواج خيانة من المرأة، وقد حرم الإسلام هذا النوع من الزواج.

المخادنة

معنى المخادنة في اللغة هو المصاحبة، والخدن هو الصديق والصاحب، وفي الجاهلية كانت تطلق على معاشرة مجموعة من الرجال لامرأة واحدة، فإذا حملت ووضعت – وليدها الذكر -، أرسلت إليهم جميعًا ليحضروا وتقول: "قد عرفتم الذي كان من أمري، وقد ولدت وهذا ابنك يا فلان"، ويدعونها بالمقسمة.

وقد جاء تعريف مصطلح المخادنة الذي ذكرناه في القرآن الكريم في آية تحريمها، بقوله تعالى: {مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ}.

نكاح المقت أو الضّيزن أو وراثة النكاح

كان الرجل عند القبائل العربية إذا مات وترك زوجة وكان له أولاد من غيرها، ورث أكبر أولاده نكاحها كجزء مما يرث من مال أبيه، فإذا أعرض عنها انتقل حقه إلى الذي يليه، وإذا لم يكن للميت ولد يرثه، انتقل حقه إلى أقرب أقربائه.

حرم الإسلام هذا الزواج وذكر في القرآن الكريم بقوله تعالى: {وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا}

وكان من حق الولد الذي آلت إليه زوجة أبيه أن يمنعها من الزواج، إلا إذا أرضته بالمال، وقد أطلق على هذا الوارث اسم "الضّيزن"، وإذا تزوج ابن الميت زوجة أبيه، كانوا أولاده منها إخوته، وقد كان هذا النوع من النكاح شائعًا في بلاد الفرس وانتقل إلى العرب، وكان عندهم مذمومًا لذلك سموه "نكاح المقت"، والمولود منه اسمه "مقيت".

وقد حرم الإسلام هذا الزواج وذكر في القرآن الكريم بقوله تعالى: {وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا}.

الشغار

وفي هذا النوع من الزواج يزوج الرجل كالأب والأخ، وليته إلى رجل آخر على أن يزوجه الآخر وليته ولا يكون بينهم صداق أو مهر، فكل عروس بمثابة مهر للعروس الأخرى، وقد حرم الإسلام هذا النوع من الزواج أيضًا.

البدل

وفي هذه العادة يتفق رجلان أن يتنازل كل منهما عن زوجته للآخر لينكحها، بمعنى أن الزوجين يتبادلان زوجتيهما برغبة الطرفين، وبطبيعة الحال حرم الإسلام هذا النوع.

إن هذا الموروث الذي أخذه العرب من أجدادهم منذ القدم، ومن ثم نظم الإسلام هذه العادات وأخذ معظمها وترك السيء منها، بقيت ملامحها وبعض تفاصيلها حتى اليوم في معظم البلدان العربية، وما ورد ذكره من أنواع الأزواج الأخرى، لا ينفي على أي حال من الأحوال صفات الكرم والشرف التي كان يتحلى بها العرب قديمًا، ففي كل المجتمعات البدائية والحديثة أيضًا، تجد الشيء ونقيضه، وهذا كان دور الإسلام التنظيمي، لتتميم مكارم الأخلاق.

رابط المقال: https://www.noonpost.com/28668/